ذكر الدولة البرطانية
وقيصرة الهند

جزاها الله عنا خير الجزاء

اعلموا أيها الإخوان.. أننا قد نجونا من أيدي الظالمين، في ظل دولة هذه المليكة التي نمّقْنا اسمها في العنوان، التي نضَرنا في حكومتها كنضارة الأرض في أيام التَّهْتان. هي أعزّ من الزَّبّاء بملكها وملكوتها، اللهم بارك لنا وجودها وجودها، واحفَظْ مُلكها من مكائد الروس ومما يصنعون. قد رأينا منها الإحسان الكثير، والعيش النضير، فإن فرّطنا في جنبها فقد فرطنا في جنب الله، وإن شر الدواب عند الله الأشرار الذين يؤذون المحسنين، ويُتْبِعون المريحين، فالله يضع الفأس على أشجار حياتهم فهم يُقطعون.

أيها الناس.. إنا كنا قبل عهد دولة هذه المليكة المكرمة مخذولين مطرودين من كل طرف، لا نعرف سكنا، ولا نملك مسكنا، وكانت "الخالصة" يخطفون أموالنا خطفة الباشقِ، ثم يمرُقون مروقَ السهم الراشق وينسِلون. وكنا كالذين في المعامي والموامي يُستفردون، ومِن لظى الغربة يتأججون. فنجانا الله من هذه البلايا كلها، وأعاننا بقوم ذي الوجه البدري، واللون الدري، فعادت

بقدومهم أيام رَوحنا وريحاننا، ورأينا بهم شكل أوطاننا وإخواننا، وأيدوا ونصروا وقاموا لإيطاننا، فدخلنا بعد عُمرٍ في الذين يروَّحون. وظهَرنا برؤية راياتهم ظهور الشمس بالصباح، وتقوينا بعناياتهم تقوي الأجسام بالأرواح، وودَّعْنا بقدومهم أبا غمرة وأبا عمرة، كان قد أضرم في أحشائنا الجمرة، وصرنا من الذين يعيشون بأرغد عيش، وبنوم الأَمَنة ينامون.

وأول مـــا لَـــقفْنا من آلائهم، وثقفنا من نعمائهم، هو الأمن والنجاة من تطاول اللّيام وظلم عبدة الأصنام، فإنهم آمنونا من كل خوف، وجبروا بالنا، وأزالوا بلبالنا، فدخلنا الجنة بعد ما كنا من الذين هم يعذَّبون. وصرنا في هذا العهد المبارك من أرباب البضاعة، وأولي المكسبة بالصناعة، ومن الذين يتنعمون. وأما في عهد "الخالصة" فكانت تجاراتنا عرضة للمخاطرات، وزروعنا طُعمة للغارات، وصناعاتنا غير فاضلة الأقوات، ومع ذلك محدودة الأوقات، وكان انسلاكنا في أعوان رياستهم وعمّالهم وعَمَلتهم وحفدتهم، تمهيدا للغرامات، وإرهاصًا لأنواع التبعة والعقوبات. وكنا كشيء يقلّب في يوم مائة مرة، ما ندري أين نكون غدا، أفي الأحياء أو في الذين يُشغَبون ثم يُقتلون.

فالحمد لله الذي بدَّلَنا من بعد خوفنا أمنا، وأعطانا مليكة رحيمة كريمة، ما نرى في عمالها سطوة المتحكمين، ونَضْنضة

اللادغين العاضّين، بل هم على الضعفاء يرحمون. ونحن تحت ظلهم نقتحم الأخطار، ونخوض الغِمار لندرك الأوطار، ومع ذلك كنا من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وإن اتفق أن تركنا البيوت عورة، وفارقنا الديار فجأة، ما كان أن يمسّنا من سوءٍ، بل كُنا في أمن من كل حرامي وسارق كأنه لم نَرُمْ وَجارَنا، ولا ظعنّا عن الفِنا وجارِنا، فكيف لا نشكر أيها الغافلون؟

إنهم أعطونا حرية تامة في إشاعة الدين، وتأليف الكتب وإقامة البراهين، والوعظ ودعوة الخلق إلى الإسلام، وفي الصوم والصلاة، والحج والزكاة. وأكثر قضايا الشريعة إلى الشريعة يردّون، ويستفتون من علماء الإسلام في معاملات المسلمين ولا يعتدون. ويفتشون عند كل حكم وقضاء، وفصل وإمضاء، ولا يستعجلون. وإذا حضر محاكماتهم المسلمان يرغّبونهم في شورى المسلمين، ويعظونهم ليقبلوا حَكَمًا حَكَمًا من أهلهما، وإذا قبلوا فيفرحون. وظهرت في أيامهم علوم الإسلام، وسنن خير الأنام ﷺ، ولا ينكرها إلا المتعصبون. وكم من مدارس عمروها، وأشاعوا أنواعَ الفنون، وأخرجوا كل ما كان كالمدفون. ورتّبوا فيها قواعد الامتحان، ليكرم الطالب أو يهان. ولا شك أنهم أحسنوا ضوابط التعليم، وأكملوا طرق التفهيم، وملكوا في هذا الأمر كلَّ زَنْدةٍ متعسّرة الاقتداح، وكلَّ قَلعةٍ مستصعبة الافتتاح، ومع ذلك مؤونةً

هذا التعليم قليلة، وأيامها معدودة، وفوائدها جليلة، فليغبط الغابطون.

ولعمري إن هذا القوم قوم أرسله الله لنا ولخيرنا، أبادوا من أبادنا، وقلدوا بالنعم أجيادنا، ووجب علينا شكرهم بالقلب واللسان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ فليتلقه المسلمون بالإجلال والإعظام، ويحملوا نير طاعتهم على كاهل المَبَرّة والإكرام، ومن عصاهم منا أو خرج عليهم أو حاربهم فأولئك الذين اعتدوا حدود الله ورسوله، وأولئك هم الجاهلون. وحرامٌ على المؤمنين تجديفهم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم، وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة أن يعصي في المعروف ملكا يحفَظ عرضَه وماله، ويتحامى أهلَه وعياله، ويُفشي الإحسان، ويُذهب الأحزان، وينشئ الاستحسان، فخذوا الفتوى أيها المستفتون. فأذنوا بحكم الله ولا تميلوا إلى جذبات النفس، ولا تأذنوا بآراء العلماء الذين يفتون بغير علم فيَضلون ويُضلون. إننا لقد عايّنا آلاء كثيرة ونعماء كبيرة من قيصرة الهند، فكيف ننساها ونكفر بها، وإن الله لا يرضى لعباده أن يكفروا وهم منعمون. لا ريب في أن القيصرة أحد جناحي المسلمين، وحافظة آثار الإسلام، ومن الذين هم يحسنون. وُجودها لنا بركة، وَجودها لنا مُزْنة، ليست على أذيتنا براضية، وقد

عصمها الله من ظلم وتغاضٍ، آوت أقوامًا متفرقة في ذيلٍ فضفاضٍ، كل حزب بعنايتها فرحون.

وأما فساد قسيسين وتطاولهم وهبوب سمومهم، وشيـــوع ضلالات الفلاسفة وانتشار علومهم، فليس فيها دخل هذه المليكة مثقال ذرة، وهذه الدولة برية من الظن بحمايتها، بل هذه نتائج حرية قد أُعطي لكل قوم نصيب تام منها، وما أعطى قانون القيصرة حقا زايدا للقسيسين على المسلمين، بل سواهما في ذلك، فلِمَ يرتاب المرتابون؟ ومن فهم أن القسيسين شعبة من شعب هذه الدولة وأنهم يعظون بأمر القيصرة فقد ضل ضلالا بعيدًا، وصار من الذين يظلمون.

أتمنع القيصرة من إشاعة دين الإسلام؟ وكأيّن من قومها.. ومن نواح دار دولتها.. أسلموا، وأُسّس المساجد فيها وعمرت، فما لكم لا تفهمون؟ وعناياتها ليست مختصة بقوم دون قوم، ذلك ظن الذين يقنَعون على خيالات سطحية، وهم عن حقيقة الأمر غافلون. انظروا إلى آثار فيضها! كيف أقامت في كل بلدة أندية الإفادة، فمنها أندية الأدب، ومنها أندية سياسة المدن، ووشّحتْها بشورى الحكماء والعقلاء، وأجرت من العلوم أنهارًا، وفتحت للطلباء مدارس، وهـــمّنت لفقرائهم درهما ودينارًا، وأعانتهم إدرارًا، وطالما داومت على ذلك، فاشكروا لها أيها المسلمون،

وادعوا الله أن يديم عز هذه المليكة الكريمة، وينصرها على الروس المنحوس، ويُدخلها في الذين آمنوا بالله ورسوله، ويعطيها خير الكونين، ويجعلها من الذين أُوتوا حظ الدارين ويسعدون.

يا قيصرة الهند.. وُقيتِ التَّلَفَ، وأُنسيتِ كلَّ رُزْء سلَف، قد بذلتِ في إقامة الأمن جهد المستطيع، ووسّعت الحرية غاية التوسيع، ونجيت المسلمين من هموم ناصبـــة، وأخرجت لهم أصداف درر ناضبة، ورأينا منك راحة القلوب، وقرة الأعين وتوديع الكروب، فواهًا لك لو كنت من الذين يُسلِمون.

جزاك الله عنا خير الجزاء، وأعطاك ما في قلبك من التمني. لا ينسى نعماءك ذرية المسلمين، ولا يمحى اسمك عن دفاتر الفُرقانيين. ينقطع الزمان ولا ينقطع ذكر مآثرك، فطوبى لك أيتها المحسنة إلى الذين كانوا يُقمَعون.

أيتها المليكة المكرمة.. إني فكرت في نفسي في كمالاتك، فوجدتك أنك حاذقة.. يمر رأيك في شعاب المعضلات مرَّ السحاب، وتزِفّ مداركُك في الغامضات كزفّ العقاب، ولك يد طولى في استنباط الدقائق، ومآثر غراء في تفتيش الحقائق، وأنت بفضل الله من الذين يصيبون في استقراء المسالك ولا يُخطُون. أنت يا مليكة، تستشفّين كل جوهر نقي، وتستنبطين دقائق المَعْدِلة بفكر دقيق وذهن ذكي، وإن لك في هذه اللياقة مآثرَ حلوَ المذاقة،

مليحَ السياقة، ويحمدك المحمودون. فالآن قد أُلقيَ في بالي، بعد تصور كمالاتك وحسن صفاتك، التي تضوعت ريحها في العالم، أن أخبرك من أمر عظيم، ليرتفع به قدرك عند رب كريم. وما أذكره إلا بفورة إخلاصي، لأن إخلاصي قد اقتضى أن أدعوك إلى خيرك، ولا أُلغي لوازم شكرك، وإنما الأعمال بالنيات، وبصدق النية يعرف المخلصون. وما كان لمخلص أن يستشعر أمرا فيه خير محسنه، بل يستعرض متاعه له ولا يكون من الذين يكتمون.

أيتها المليكة الكريمة الجليلة.. أعجبني أنك مع كمال فضلك، وعلمك وفراستك، تنكرين لدين الإسلام، ولا تُمعنين فيه بعيون التي تمعنين بها في الأمور العظام. قد رأيت في ليلٍ دجى، والآن لاحت الشمس.. فما لك لا تَرَينَ في الضحى؟

أيتها الجليلة، اعلمي – أيدك الله – أن دين الإسلام مجمع الأنوار، ومنبع الأنهار، وحديقة الأثمار، وما من دين إلا هو شعبته، فانظري إلى حِبره وسِبره وجنّته، وكُوني من الذين يُرزقون منه رزقًا رغدًا ويرتعون. وإن هذا الدين حي مجمع البركات، ومظهر الآيات، يأمر بالطيبات، وينهى عن الخبيثات، ومن قال خلاف ذلك أو أبان فقد مان، ونعوذ بالله من الذين يفترون. فبما إخفائهم الحق وإيوائهم الباطل لعنهم الله ونزع من صدورهم أنوار الفطرة، فنسُوا حظهم منها، وفرحوا بالتعصبات وما يصنعون.

أيتها المليكة.. إن هذا القرآن يطهّر الصدور، ويلقي فيها النور، ويُري الحبور الروحاني والسرور، ومن تبعه فسيجد نورا وجده النبيون. ولا يلقى أنواره إلا الذين لا يريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فسادا، ويأتونه راغبا في أنواره، فأولئك الذين تفتح أعينهم، وتُزكّى أنفسهم، فإذا هم مبصرون. وإني بفضل الله من الذين أعطاهم الله من أنوار الفرقان، وأصابهم من أتم حظوظ القرآن، فأنار قلبي ووجدتْ نفسي هداها، كما يجد الواصلون. ثم بعد ذلك أرسلني ربي لدعوة الخلق، وآتاني من آيات بينة، لأدعو خلقه إلى دينه، فطوبى للذين يقبلونني ويذكرون الموت، أو يطلبون الآيات وبعد رؤيتها يؤمنون.

أيتها المليكة الكريمة.. قد كان عليك فضل الله في آلاء الدنيا فضلا كبيرا، فارغبي الآن في ملك الآخرة، وتوبي واقنتي لرب وحيد، لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، وكبّريه تكبيرا. أتتخذون من دونه آلهة لا يخلُقون شيئا وهم يُخلقون؟ وإن كنت في شك من الإسلام فها أنا قائم لإراءة آيات صدقه. وهو معي في كل حالي، إذا دعوته يجيبني، وإذا ناديته يلبيني، وإذا استعنته ينصرني، وأنا أعلم أنه في كل موطن يعينني ولا يضيعني. فهل لك رغبة في رؤية آياتي، وعيان صدقي وسدادي، خوفا من يوم التنادي؟

يا قيصـــرة، توبي توبي، واسمعي اسمعي! بارك الله في مالك، وكُلِّ ما لك، وكنت من الذين يرحمون. فإن ظهر كذبي عند الامتحان، فوالله إني راضٍ أن أُقــتَل أو أُصلَب أو تُقطَع أيدي وأرجلي، وأُلــحَق بالذين يُذبحون. وإن ظهر صدقي فما أسأل أجرًا منك، إلا رجوعك إلى الذي خلقك، وربّاك وأعزك، وآتاك كل ما سألت. فاسمعي دعوتي، يا مليكة الممالك العظيمة وقيصرةَ الهند، ولا تكوني من الذين يشمئز قلوبهم عند ذكر الحق ويعرضون.

أيتها القيصرة الكريمة الجليلة – أذهب الله أحزانك، وأطال عمرك وعمر فلذِ كبدك، وعافاك وحفظك من شر الأعداء والحسداء – إني كتبت هذه الوصايا خالصا لله رحما عليك وعلى عقباك، وأدعو لك بركات الليل وبركات النهار، وبركات الدولة وبركات المضمار.

يا مليكة الأرض.. أسلِمي تسلَمين.. أسلمي متَّعك الله إلى يوم التنادي، وسلِمت وحُفِظت من الأعادي، ويحفظك من الله الحافظون.

أيتها المليكة الكريمة.. أنا امرؤ جذبه الله تعالى من الدنيا إلى الآخرة، وما أسأله من هذه الدنيا إلا رغيفين وكوزة ماءٍ، وصرف قلبي من أهواءٍ، لا أريد علوًّا ولا مزية في الدنيا ولا زينتها، وأريد

أن أكون بالذين يُبسط لهم سُرُر في الجنة ومن نعمائها يُرزقون، وفي رياض حظيرة القدس يرتَعون.

أيتها المليكة.. أنا أحد من المسلمين، رزقني الله عرفانه، وأعطاني نوره وضياءه ولمعانه، وأظهر عليّ ملكوت السماوات وحَبّبها إلى بالي، وأراني ملك الأرض وكرّهه إلى قلبي وصرف عنه خيالي، فاليوم هو في أعيني كجيفة أو أَنتَنَ منها، وكذا كل زينة الحياة الدنيا والمال والبنون.

وفي آخر كلامي أنصح لك يا قيصرة، خالصًا لله.. وهو أن المسلمين عضدك الخاص، ولهم في مُلكك خصوصية تفهمينها، فانظري إلى المسلمين بنظر خاص، وأقرِّي أعينهم، وألّفي بين قلوبهم، واجعلي أكثرهم من الذين يقرّبون. التفضيل.. التفضيل! التخصيص.. التخصيص! وفي هذه بركات ومصالح. أَرْضيهم فإنك وردتِ أرضهم، وداريهم فإنك نزلتِ بدارهم، وآتاك الله ملكهم الذي أمروا فيه قريبًا من ألف سنة مما تعدون. فاشكري ربك وتصدقي عليهم، فإن الله يحب الذين يتصدقون. الملك لله، يؤتي من يشاء، وينـــزع ممن يشاء، ويطيل أيام الذين يشكرون.

أيتها المليكة المكرمة.. لا شك أن قلوب مسلمي الهند معك، ولا أستنشق منهم ريح الفساد، وما أرى فيهم نار العناد، وإنهم رجلك وخيلك، المستعدون لفداء النفس وأداء شرائط الانقياد،

والحاملون لك جميع شدائد القُنن والوِهاد، بل هم أول خدمكِ في مواطن الإقدام والانبراء، وجوارحك في مواضع الفصل والإمضاء. إشارتك لهم حكم، وطاعتك لهم غنم. لن تَرَي منهم غدرا ولا عذرا. ولكنهم يا قيصرة الهند قومٌ كان لهم شأن، وكانت فيهم سرر وتيجان، وكانوا يحكمون على عبدة الصنم كالرعاة على الغنم، فقلِّب أيامهم من سوء أعمالهم، وظُلموا من أيدي "الخالصة" وإخوانهم، وكانوا يستشرفون وقت حكومتك كاستشراف الصائمين هلال العيد، ويرقُبون عنايتك رُقْبَة الحبلى ولادة الابن السعيد، وكانوا بقدومك يستفتحون. وقد مضت عليهم أيام كانوا في حُللِ إمارات، وبعصيِّ اختيارات، فيلوعهم في بعض الأوقات ادّكارُ هذه الدرجات، فإن قلع العادات من المشكلات. وما قلت لك إلا نصحًا وإنما الأعمال بالنيات.

ووالله إن الخير كله في إكرامهم، وردِّ عزهم إليهم ببعض المناصب والعطيات، وما أرى خيرًا في حيل استيصالهم وقتلهم كالحيات، وما كان لنفس أن تموت أو تنفى من الأرض إلا بحكم رب السماوات. فأشفقي عليهم أيتها المليكة الكريمة المشفقة – أحسن الله إليك – واعفي عني إن رأيت مرارة قولي، فإن الحق لا يخلو من المرارة، والعفو من كرام الناس مأمول.

إني أرى المسلمين قد مسّهم البؤس والافتقار، وما بقي في بيوت ذرية الأمراء إلا اللَّبِن والأحجار. سقطت العمائم عن الرؤوس، وما بقي للرهن غير الأباريق والكؤوس. كانوا في وقت ذوي حواشٍ وغواشٍ، ومتاعٍ وقماش، واليوم لا أرى حفدتَهم إلا جوارحهم، وأراهم من تقلب الأيام كالسكارى، وما هم بسكارى، ولكن غشِيهم من الغم ما يغشى الناس عند ازدياد الاعتياص، وانسدادِ طرقِ المناص. وإني أرى أنك كريمة جليلة، ومثلك لا يوجد في الملوك. وقد وهبك الله حَزامةً وانبعاثًا، تواسين رعاياك بالتعب الشديد ولا تطيعين راحة إلا حثاثا، وتستغرقين أوقاتك في تفقد الرعايا وفكر مصالحهم، وتختارين النصب لعل الخلق يستريحون. وظني أنك قد قلت لنائبيك في الهند أن يفضّلوا شرفاء المسلمين على غيرهم، وينظروا إليهم بإعزازٍ خاصٍ، ويقربوهم بخصوصية، ولكن النائبين سوَّوا الأمر، وما رعوا مصلحة إعزاز المسلمين حق رعايتها، بل ما خطر ببالهم أن ينظروا إلى أطمارهم ويسعفون.

هذا ما قلت شيئًا من حال مسلمي الهند، وأما عبدة الأصنام الذين يقولون إننا "هندو" و"آرية"، فهم قوم أنفدوا أعمارهم كالعبيد والحفدة، ومرت عليهم قرون وهم كمجهول لا يعرف، أو نكرة لا تتعرف. وتعرفين أيتها المليكة الجليلة أنهم مسلوبة

الطاقات، ومطرودة الفلوات من دهر طويل. جلودهم قد وُسمت، وجنودهم قد حُسمت، وزمام نفوسهم قد ضُفر، وظهر عزمهم قد كُسر، فيمشون إلى ما سيقوا ولا يعتذرون، ولا يريدون عزة، وفي قلوبهم جُبن الغِلْمة، فهم لا يبسُلون. والسر في ذلك أنهم من حُقُب متلاحقة مطيّـــةُ خدمة، لا أهل حكومة، ومعتاد فقر ومسألة، لا من أهل عزة ودولة. انتابت الملوك عليهم من غير قومهم فهم به معتادون. مَثل المسلمين كمثل ماء لا يجري إلا إلى أرضٍ غورٍ ذات حطوط، ومثل عبدة الأحجار كقوم لوط، أو كحمير احتجتِ لسَوقها إلى سوط، أو عصا مخروط. تلك عظام نخرة، وهم قوم كانوا عرجوا ويعرجون.

هذا ما رأيت، فقلت نصحا لله، وإخلاصا في حضرتك، والأمر إليك، وإنا تابعون.